

إرميا ٣٨: ١-١٣ إرميا يُطْرَمُ فِي الْجَبِّ



الأخت روز أبي عاد

دكتوراه في لاهوت الكتاب المقدس

مقدمة

الذين اعتقلوه بادئ ذي بدء في بيت يوناتان الكاتب (٣٧: ١٥)، وفي ما بعد، زجوه في جب ملكيتا ابن الملك الذي في دار الحرس (٣٨: ٦). ومن النقاط المشتركة بين الفصلين ذكر "باب بنيامين"^٢، حتى ولو كان الكلام عنه في مناسبتين مختلفتين. من ناحية أخرى، يبرز دور الملك الإنقاذي، إذ يتدخل وبفضله تُفك قيود النبي. وأخيراً، وبعد كل إنقاذ، يفرد الملك صدقياً بالنبي إرميا ليعلم من فمه الكلام من لدن الرب^٣.

٢- الشرح

١٢:

يبدأ النص بذكر أسماء الرؤساء الأربعة الذين سيقفون بالمرصاد لإرميا لينالوا منه. شفتيا بن مثنان، في العبرية يعني اسم **שַׁפְטִיָּא בֶּן מִתְנַן**، "الرب يحكم (قضائياً)". لم يوثق على ذكره في أي مكان آخر، ولذلك لا نعرف عنه أي شيء سوى أنه من الرؤساء، معاوني الملك في الحكم (آ ٤). ثم، جدليا بن فشحور، هو أيضاً غير معروف، ولكن

حوالي ٥٨٨-٥٨٧ ق.م. كانت الأمور تتهاوى في مملكة يهوذا؛ فالبابليون حاصروا اورشليم ثم فكّوا عنها الحصار، ولكن خطرهم بقي محدقاً بالمدينة. ثلاث مرّات يستنجد الملك صدقياً بالنبي إرميا ليتضرّع إلى الله حتى ينقذهم من محنتهم، وربما ليعلم منه ما يروق له. ولكن إرميا المفوّض من الله لإيصال كلمته، يأبى أن يحابي الوجوه. ولذلك، فمن جهة، يختم شبح الموت على اورشليم، ومن جهة أخرى، يهدّد شبح الاعتقال إرميا من قبل الرؤساء.

١- الإطار المباشر

بين الفصلين ٣٧ و ٣٨ توجد نقاط عدّة مشتركة: كلاهما دُونا بالفنّ الأدبيّ السرديّ. ثمّ، بالنسبة إلى وضع إرميا، يبدو لنا وكأنّ الأحداث تتكرّر هي ذاتها، بحيث يبدأ الفصّلان بالإشارة إلى حالته: هو حرّ ويوصل رسالته علناً للشعب^١. ثم يصبح ضحية مكيدة الرؤساء،

(١) رج إر ٣٧: ٤؛ ٣٨: ١.

(٢) رج إر ٣٧: ١٣؛ ٣٨: ٧.

(٣) رج إر ٣٧: ١٧؛ ٣٨: ١٤.

من الممكن أن يكون ابن فشحور الكاهن الذي جعل إرميا في المقطرة بعد أن سمعه يتنبأ عن خراب مدينة أورشليم (إر ٢٠: ٣-١). ثم يوكل بن شلميا: كان الملك صدقيًا قد أرسله إلى إرميا، برفقة صفنيا بن معسيا، ليطلب صلاة النبي (٣٧: ٣). وأخيرًا، فشحور بن ملكيا: يعني الاسم **פְּלִיפִּיָּהוּ** "الرب هو ملكي". هو أيضًا، سبق لصدقيًا أن أرسله إلى إرميا، ليتشفع لدى الرب من أجل شعبه، ويُبعد عنهم خطر نبوكدنصر (إر ٢١: ٢-١).

في القسم الأخير من T ٢: "الذي يخرج إلى الكلدانيين يحيا، وتكون له نفسه غنيمة فيحيا"، قد يفهم أن إرميا يشجع على الاستسلام أمام الأعداء، وهذا هو أمر مخزٍ للملك. ولكن صدقيًا لم يكن بعد قد نسي حين حاصر ضباط نبوكدنصر أورشليم سنة ٥٩٧، فاتخذ حينذاك الملك يوياكين وأمه الملكة القرار بالاستسلام^٦، ذلك لأن قرار التصدي لملك بابل سيُلحق به وبشعبه الكارثة. وعليه، فما يقوله إرميا لا يعني التحريض على الخيانة العظمى، بل دعوة إلى قراءة الأمور بواقعية واختيار الشر الأقل ضررًا. لكن سنرى في ما بعد أن صدقيًا ومستشاريه سيعثون بأقواله وسيكتبون كل نتائج الاحتلال الوحيمة.

٣ آ

مرة جديدة، يكرّر إرميا ما ورد على لسانه، في ما يخص سقوط أورشليم بيد نبوخذنصر^٧.

٤ آ

يدل اسم الفاعل **פְּלִיפִּיָּהוּ** الذي يُستعمل على وزن فعل على التشديد، ويعني أوهن أو ضعف. أما عبارة "يضعف أيدي رجال القتال" فهي صورة بلاغية، إذ إن في القتال، كان يعول كثيرًا على قوة الأيدي. وعليه، أن يتهم الرؤساء إرميا بإضعاف أيدي رجال الحرب، يُقصد به أنه يصرّ على إحباط معنوياتهم^٨.

كان الفصل ٣٧ قد انتهى بمشهد إرميا مقيمًا في دار الحرس، ولكن في هذه الآية (٣٨: ١) نرى أنه بالرغم من إقامته تحت الحراسة، فإن حرّيته الكاملة لم تُسلب منه، إذ ما زال بإمكانه أن يستقبل الشعب ويكلّمهم. أما صيغة الفعل المستعملة في العبرية **פָּרַח**، فهي اسم الفاعل لفعل **פָּרַח** على وزن فَعَّل، وهو يعني ليس فقط أنه كان "يكلّم الشعب"، لا بل أنه كان "يكرّر كلامه"، وقد يعني أنه كان "يكتف من حدة كلامه"، وهذا ما تسبّب في ردة فعل الرؤساء العنيفة تجاهه.

٢ آ

الكلام الذي يتفوّه به إرميا هو بالواقع إعادة لخطاب سبق وقاله في ٢١: ٩؛ فالشعب الذي يزوره في دار الحرس يسمع الكلام نفسه الذي قاله للملك.

أما عبارة "يموت بالسيف والجوع والطّاعون" فتدلّ على انعدام السلام، والتهديد المباشر بالحرب. نجد هنا تناقضًا كبيرًا بين ما يقوله سائر الأنبياء على أنّ الشعب لا يرى شيئًا ولا يحلّ به جوع (إر ١٤: ١٣، ١٥)، وما يقوله إرميا^٩. وقد رأى هو ذاته بأّم العين النتائج الوحيمة

(٤) تشكّل أفكار إرميا صدّى لما ورد في نشيد موسى حيث يعد الرب بأن يرسل السيف والجوع ومصائب أخرى جوابًا على خيانة الشعب له (تث ٣٢: ٢٤-٢٥).

(٥) رج إر ١١: ٢٢؛ ١٤: ١٢-١٣، ١٥-١٦؛ ٤٤: ٢١؛ ٧: ٩؛ ٢٤: ١٠؛ ٢٧: ٨، ١٣؛ ٢٩: ١٨؛ ٣٢: ٢٤؛ ٣٦: ٣٤؛ ١٧: ٣٨؛ ٢٢: ٤٢؛ ١٦-١٧، ٢٢؛ ٤٤: ١٢-١٣، ١٨، ٢٧.

(٦) رج مل ٢٤: ١٠-١٦.

(٧) رج إر ٢١: ١٠؛ ٣٢: ٣؛ ٢٨: ٣٤؛ ٢: ٢٢؛ ٣٧: ٤٨؛ ٣٨: ١٨، ٢٣.

(٨) هذا وكان إرميا ذاته قد استعمل عبارة "استرخت أيدينا" لدى بلوغه أخبار الاجتياح القريب لعدوّ مقبل من الشمال لمدينة أورشليم (إر ٦: ٢٤).

لهؤلاء الذين يودون إسكات إرميا، ولكته في الوقت عينه يحاول كسب الوقت، لكي لا ينتزعوا منه عقوبة الإعدام. إنه هزيل إزاء معاونين مستبدّين. ويمكن أيضًا تفسير تصرّفه من قبيل المماطلة؛ إنه نوع من التردد الذي يودّي إلى تفاقم الأمور.

للمرة الثانية في الفصلين ٣٧-٣٨ يدو الملك وكأته لا يملك زمام الحكم، بل يهاب الرؤساء الذين يأخذون قرار سجن إرميا دون أن يستشيروه (٣٧: ١٥-١٦)؛ والاسوأ من ذلك، هو أنّه لا يجروء على التكلّم مع النبيّ علنًا بل سرًّا (١٧١).

٦٤

لقد سبق لإرميا أن قبع في السجن في "بيت يوناتان الكاتب" (٣٧: ١٥). وكان سجنه إذًا يهدف إلى إلزامه أن يكفّ عن موقفه السياسيّ المناوئ لملك يهوذا، وإلى منعه من الإدلاء برأيه بحرّيّة. أمّا عندما ألقوه في جبّ ملكيتا ابن الملك الذي في دار الحرس^٩، فكأتهم نصبوا له فخًا مميّثًا، بحيث سيغرق في الوحل دون التمكن بأيّ حيلة من الخلاص منه؛ فالآبار كانت كناية عن حفر عميقة، ذات فوهة صغيرة، ولذا، من يقع فيها أو من يُرمى فيها عن سابق قصد وتصميم، فمن المستحيل أن يخلص منها. أمّا خطورة خبثهم فتكمن في كونهم يعون أنّ إرميا سيلاقي حتفه في هذه البئر، ولكن لن تُلقى عليهم تهمة إراقة دم زكيّ.

"ولم يكن في الجبّ ماء، بل وحل": عادة الآبار التي كانت تفرغ من الماء، كانت تترك أثرًا من الوحل في قعرها، وهذا ما كان يحصل في نهاية فصل الصيف وقبل أن يبدأ المطر يتساقط، فغاص إرميا في الوحل^{١٠}.

تشير عبارة הַנְּשָׂאֲרִים בְּיָרֵךְ، "الباقيين في المدينة"، إلى تكبد خسائر جمّة في الأرواح، وإلى أنّ معنويات المحاربين الباقيين منخفضة جدًّا. لهذا السبب، يعرف الرؤساء جيّدًا أنّ كلام إرميا سيلقى آذانًا صاغية في أواسط رجال القتال الباقيين. بالمقابل يضغط الرؤساء بالقوّة على الملك للنيل من حياة إرميا. في عهد يويّاكين كان الكهنة والأنبياء الذين طالبوا بموت إرميا (٢٦: ١١)، والآن يتّهمه الرؤساء بأنّه أفاد من وجود هؤلاء المقاتلين بالقرب من القصر وراح يخاطبهم بغية إقناعهم ليس فقط بالاستسلام إلى الكلدانيين، بل أكثر من ذلك عليهم الاعتراف بالحقائق السياسيّة والعسكريّة. علمًا أنّ إرميا لم يقصد قطّ أن يحطّ من معنويّات رجال الحرب، فإذا عدنا إلى الوراء نرى أنّه عندما كان جيش ملك بابل يحاصر أورشليم، وكان حينئذٍ إرميا النبيّ محبوبًا في دار الحرس في بيت ملك يهوذا، اشترى حقلًا في عناتوت من أرض بنيامين، وكان شراء الحقل عملاً نبويًّا لأنّه ينتهي ببادرة خير وعودة إلى الأرض والسكن فيها بطمأنينة (إر ٣٢).

٥٥

"ها إنّ في أيديكم، لأنّ الملك لا يستطيع معكم شيئًا": بساطة مخزية يسلم الملك النبيّ إلى نفوذ الرؤساء. كلامه خير دليل على أنّه مغلوب على أمره، فهو يعي تمامًا خطر إحباط العزائم، ولكته لا يريد أن يُطلق عقوبة الإعدام بحقّ إرميا (٢٦: ١٥)، لذلك يترك القرار بين أيدي الرؤساء.

بالإضافة إلى ضعف موقف صدقيّتا، يمكننا من جهة ثانية أن نقول إنّ يقوم بحساباته الخاصّة؛ هو يطلق العنان

(٩) بالنسبة إلى ملكيتا ابن الملك، لم يكن ابن صدقيّا الذي لم يكن له آنذاك من العمر أكثر من اثنين وثلاثين عامًا (رج ٢ مل ٢٤: ١٨). ولذا، لا ندري ابن أيّ ملك، إذ إنّ الملوك كان لهم أحرام كبيرة وأولاد كثير.

(١٠) بهذه الصورة عينها ستتعتى النساء اللواتي سيقتدن إلى رؤساء بابل قائلات عن صدقيّتا: "أصدقاؤك الأحماء خدعوك وغلبوك، فغاصت رجلاك في الموحل، وهم انصرفوا عنك" (إر ٣٨: ٢٢).

١٠٤:

بعد أن كان الملك قد جتير كل سلطته لمعاونه في الحكم، نراه الآن يستعيد صلاحياته لإحباط مؤامرة الرؤساء الذين أوكل إليهم مصير إرميا. لقد أثار الموظف الحبشي حالة إرميا الحرجة، فما كان من الملك سوى أن أمر باستخراجه من البئر بأسرع ما يمكن.

يبدو العدد "ثلاثين رجلاً" مبالغ فيه قصد إخراج إرميا من الجب^{١٢}. ربّما كان يهدف هذا العدد الكبير إلى التصديّ للرؤساء الأربعة الذين نصبوا المكيدة لإرميا، أو ربّما كانوا بحاجة إلى هذا العدد بسبب الهزال الذي أصابهم من جرّاء الجوع.

١١٤:

ليس من الضروري أن يقصد بعبارة **בֵּית-הַמֶּלֶךְ** "بيت الملك، القصر الملكي، بل بالحريّ بناء تابع لمجمع القصر، وكان يستعمل كمخزن للأسلحة، أو للحبوب، أو للنبذ، أو للزيت، وظاهرياً للخرق البالية. كان عبد ملك يعرف جيّداً الطريق المؤدّية إليه وتحتّه توجد غرفة خشبيّة؛ فالخزانة الملكيّة توجد عادة في القصر ذاته، ولا تحوي ثياباً رثّة وخرقاً بالية.

١٢٤:

من المحتمل أن يكون إرميا قد وضع الخرق البالية تحت الحبال التي تلفّ ظهره، إذا استعملها كوسادة لتلاّ تمزّق الحبال جسده. يستوقفنا الفرق في معاملة الرؤساء الفظة له حين "دلّوه بحبال" (٦١)، وبالمقابل معاملة عبد ملك له إذ يحاول تقادي أذيتّه على الإطلاق.

١٣٤:

"فرفعوا إرميا بالحبال، وأخرجوه من الجب". لقاء إنقاذه لإرميا سيخلّص الربّ عبد ملك من الاجتياح، فلن

وما يدلّ على نواياهم الشريرة، هو أنّهم أسرعوا في أخذ القرار، ثمّ إنّهم طمسوا فعلهم ولم يفصحوا للملك ما قاموا به، لأنّهم كانوا يعلمون أنّهم اتخذوا إجراءات غير قانونيّة.

٧٤-٨:

يلفت انتباهنا أنّ رجلاً كوشيّاً توسّط لدى الملك ليخلّص حياة إرميا، وأكثر من ذلك كان خصيّا. السؤال الذي يطرح ذاته: كيف يمكن لعبد في البلاط الملكيّ، وهو غريب، أن يتدخّل في ما يخصّ القرار السياسيّ الذي اتّخذ بين الملك ورجال الدولة؟ من الجائز أن يكون رئيس حرم الملك المنوّه إليهنّ في ٢٢٢، وهو بالتالي يتمتّع ببعض النفوذ، كما يعرف جيّداً أقسام القصر وبإمكانه الوصول إلى الأماكن الأكثر سرّيّة، أي إلى أسفل المخزن حيث يقبع إرميا (١١٤).

وكان الملك جالساً بباب بنيامين، لذلك خرج عبد ملك من القصر ليتكلّم معه. لا نعرف بالتدقيق أين يقع باب بنيامين، ولكن من الاكيد أنّ الملك كان يأتي إلى ذاك المكان لسماع الشكاوى وإصدار الأحكام^{١١}.

٩٤:

لم يكن بمقدور عبد ملك أن يلوم سيّده، كونه هو الذي سمح للرؤساء بأن ينالوا من إرميا، ولكن كلّ ما كان بإمكانه فعله هو تجنّب العمل الانتقاميّ ضدّ إرميا، الذي يكاد يودي بحياته.

كان يكفي أن يقول "هو يموت جوعاً هناك" دون الحاجة إلى إضافة معلومات أنّه "لم يبق في المدينة خبز"، إذ إنّ إرميا في الجبّ سيواجه حتميّة الموت، لا محالة، أمّا خروجه منه، حتّى ولو كانت المدينة تعاني من الحصار ومن الشخ في المآكل، فسيعطيه فرصة للبقاء على قيد الحياة.

(١١) رج ٢ صم ١٥: ٢-٦.

(١٢) على كلّ حال، فالترجمة الحرفيّة لعبارة **בְּנֵי-יָמִים** هي "ثلاثون رجلاً"؛ من هنا نلاحظ خلافاً في هذه العبارة غير الصحيحة نحوياً.

تحت ناظريه، هو فاحص القلوب والكلبي^{١٤}. هم حاولوا أن يسكتوا صوت النبي بدم بارد، ولكنّ صوته هو صوت الله، الذي تعجز أيّ قوّة في العالم أن تطمسه.

في توسط الخصي لإنقاذ إرميا من الموت، نرى حلقة من سلسلة تدخّلات إنقاذيّة لأناس غير يهود في سبيل المختارين من الله؛ فراعوت الموآبية أنقذت نسل أليمك من الانقراض، لا بل سيخلّد ذكرها في نسب يسوع المسيح (مت ١: ٥)، وقورش الفارسيّ سيكون أداة حسنة في يد الله إذ سيتمّ كلّ ما يشاؤه وسيدعيّ مسيح الربّ^{١٥}. وفي هذا الإطار يندرج مثل السامريّ الصالح الذي أعطاه يسوع في العهد الجديد (لو ١٠: ٢٩-٣٧)؛ فإذا كان الربّ يعاقب شعبه بشعب غريب، كما هي الحال في نبوءة إرميا، ولكن في الوقت عينه، هو يخلّصهم بهم أيضًا.

يدهشنا التباين بين موقفيّ صدقيّ الملك وإرميا النبيّ؛ ففي حين أنّ صدقيّ الذي يريد أن يحيا، يذهب إلى الموت المحتوم لقاء عدم وضع ثقته في كلام الله، فإنّ إرميا الذي وثق بالله وسلّم له حياته سينجو من مكاييد كثيرة ضده كما سيخرج آمنًا من حصار أورشليم.

أخيرًا، طيلة حياته عاش إرميا منعزلًا، مكرهًا، مضطهدًا. كانت كلمة الله عنده ذات قوّة لا تضاهي، وقد عجزت السلطات الأرضيّة عن إسكاته. في مغامراته النبويّة، دخلت عدّة مرّات كلمة الإنسان في خصام مع كلمة الله، ولكن في النهاية الغلبة لله وكلمته. ألا نجد في مراحل حياة إرميا تسبيقًا لأهمّ الأحداث التي ستواجهه يسوع، إذ ستأمر عليه السلطات الدينيّة لتنال منه ولكن دون أن تعي أنّ الكلمة الأخيرة في منطق الله هي للقيامة بعد أهوال الموت.

يسقط بالسيف، ذلك لأنّه توكلّ على الربّ (٣٩: ١٥-١٨).

أمّا الرؤساء الذين لحقت بهم الإهانة، فسينتهي دورهم ويضمحلّون عن الساحة دون أن يملكوا أيّ نفوذ في ما بعد (٢٤٦-٢٧).

خاتمة

في إر ٣٨: ١-١٣، تمكّن الرؤساء حقًا من تكييل النبيّ ومن النيل من حرّيّته، ولكنهم عجزوا عن تكييل كلمة الله، فما إن انثشل إرميا من الجبّ، حتّى بادره الملك صدقيّا لسمع منه كلمة الله، وها هو يقولها له كما ائتمن عليها؛ فقد عانى المشقّات واحتمل القيود كمجرم، "ولكنّ كلمة الله ليست مقيدة"، ولا يمكن لأيّ قدرة أن تقيدها^{١٦}.

في كلامه إلى الرؤساء: "ها إنّه في أيديكم، لأنّ الملك لا يستطيع معكم شيئًا" (إر ٣٨: ٥)، بدا صدقيّا حقًا وكأنّه يلعب دور بيلاطس البنطيّ الذي غسل يديه من دم الصديق (مت ٢٧: ٢٤). لقد راوغ حقًا إزاء أخذ القرار الذي تعود إليه وحده مسؤوليّة البتّ فيه، فظهر غير مسؤؤل وجبان.

في طرح الرؤساء لإرميا في البئر الفارغة، نعود بالذاكرة إلى المشهد ذاته، يوم تأمر إخوة يوسف بن يعقوب عليه وطرحوه في أحد الآبار، لأنّ نار الحسد والضغينة كانت تلتهمهم. الأسوأ في هكذا تدبير، أنّ المجرمين لا يتحمّلون عقوبة إراقة الدماء، بحيث هم لم يقتلوا الضحيّة، بالرغم من أنّهم هم الذين أودوا بها لتموت وتركوها تحتضر ببطء. ولكن ألم يقرأ هؤلاء أنّ الربّ يسبر الإنسان ويعرف جلوسه وقيامه، هو يفتن لأفكاره من بعيد، فلا شيء يخفي عليه، لأنّ كلّ شيء

(١٣) رج إر ٣٨: ١٧-١٨؛ ٢٤: ٢؛ ٩: ٩.

(١٤) رج مز ٧: ١٠؛ ١٣٩: ١-١٦.

(١٥) رج أش ٤٤: ٢٨؛ ٤٥: ١-٨؛ عز ١.

مراجع

LUNDBOM Jack R., *Jeremiah 3752-, A New Translation With Introduction and Commentary*, New Haven, London, Yale University Press, 2008.

MARTENS E. A., *Jeremiah*, Scottdale, Pa., Herald Press, 1986.

McKANE William, *A Critical and Exegetical Commentary on Jeremiah*, Edinburgh, T&T Clark International, 1986.

